زيارتنا لآثار توت عنخ امون

للاب لويس شيخو اليسوعي

انَّ عاديَّات مصر العجيبة التي استخرجها الاثريون من بواطن الارض في قطر النيل منذ نحو مئة عام أدهشت العالم اجمع فكنَّا نحن عند سنوح الفرصة لا نتمالك عن تتبع ابصارنا بمعاينتها لنحيط بها علماً . فزرناها مرَّةً اولى سنة ١٨٧٧ في متحفها الاوَّل الذي انشأهُ العلَّامة والنابغة الفرنسوي ماريت في بولاق وهو منذ ذاك الحين مدعاة لانذهال العموم

ثمَّ انتهزنا فرصة رحلةٍ ثانية الى القطر المصري سنة ١٨٨٥ لنزور المتحف الجديد الذي نُقلت اليهِ تلك العاديَّات في الجيزة في سراي الخديوي الجليل اسماعيل باشا فكان منظرها يبهر الابصار لحسن تنسيقها في ذاك المعهد الملكيّ الفخم مع ما أُضيف اليها من المكتشفات الحديثة

وقد زرناها قبل عشرين سنة في متحفها الحاضر في قصر النيل حيث تشيَّدت لهُ تلك الابنية الواسعة ذات الهندسة المحكمة والواجهة الرائعة في ساحة رحبة الارجاء. فعُرضت في معاهدها الالوف المؤلفة من العاديَّات المصريَّة العجيبة لتاريخ مصر القديم من الالف الرابع قبل الميلاد الى اواخر العهد الروماني بعد المسيح . وقد سبق جناب الاديب توفيق دُوَّح ونشر في المشرق (٥ [١٩٠٢]: ١١٠٤ــ١١١٢) وصف هذه دار العاديَّات مع صورتي رسمها وواجهتها . فكان الزوَّار يتقاطرون اليها من كلّ صوب وفجّ

ولم نشأ ان نحرم نفسنا في رحلتنا الحديثة الى عاصمة مصر من النظر الى المتحف المذكور لرؤية تلك الكنوز التي استُخرجت من مدفن الفرعون توت عنخ امون رجاء ان نعرض لقرَّائنا شيئاً من تلك الآثار التي اهتزَّ العالم طرباً لاكتشافها . وها نحن نورد هنا ما وقفنا عليهِ مباشرين اوَّلاً بذكر الفرعون صاحب الجواهر وبيان خلاصة اخباره

١ من هو توت عنخ امون

هو احد ملوك مصر الفراعنة من السلالة الثامنة عشرة التي حكمت على مصر بعد انتصارها على سلالة اجنبية سامية تُعرف بالهكسوس او الرعاة التي في ايامها وقعت الحوادث التي سطَّرها سفر التكوين عن ابراهيم ويوسف. وكان المنتصر عليها الفرعون احمس الوطني الاصل في السنة ١٥٨٠ قبل المسيح وكانت هذه السلالة من اعظم سلالات مصر جاهاً واقواها شوكة ضبطت ازمَّة الملك مدَّة ٢٣٠ سنة وجعلت كرسي مملكتها في طيبة في الصعيد وفي عهدها بلغت مصر اوج عزّها. وقد امتاز بين ملوكها الثلاثة عشر الفراعنة تحوتمس الثاني وتحوتمس الثالث وامينوفيس الثاني وامينوفيس الثالث فغزوا بلاد النوبة وفتحوا الحبشة وتخطَّوا الى بلاد فلسطين وسوريَّة حتى عبروا الفرات وبلغوا الى نينوى ودخلوها واخضعوا ملوك اشور فصار لمصر الحكم الراجح في كل تلك الاقطار. وقد ثبت الملك في جانب هذه السلالة الى السنة ١٣٥٠ ق م

اما توت عنخ امون فكان من اواخر ملوكها تبوَّأ العرش من السنة ١٣٥٨ الى ١٣٥٢ فصار الحكم بعده بزمن قليل للدولة التاسعة عشرة

تولى الامر في ايام مضطربة وفي احوال حرجة وذلك بسبب ما وقع من النزاع بين سلفه امينوفيس الرابع المالك من السنة ١٣٧٦ الى ١٣٥٧ ق م فهذا الفرعون كان مقامهُ في طيبة التي كان يكرِّم فيها الاله امون يعتبرونهُ كالاله الاعظم ينسبون لهُ السيطرة على آلهة البلاد كالاله فتاح اله منف والاله رَعْ اله عين شمس. وكان لكهنته نفوذ عظيم في سياسة المملكة حتى زاحموا الفرعون في سلطته السامية في عهد تحتمس الثالث فرأى خلفه امينوفيس الرابع ان لا نجاة من سطوتهم إلَّا بانتقاله من مدينة طيبة الى مركز آخر فتحوَّل عنها بحاشيته الى ضفَّة النيل الشرقيَّة في مصر الوسطى قريباً من اسيوط على مسافة ١٩٠ ميلاً من القاهرة فابتنى لهُ حاضرة جديدة واختار لحمايتها إلهاً جديداً فعبد الشمس واتَّخذ قرصها وشعاعها كشعاره وهو الاله أتون فبدل اسمهُ امينوفيس اي حبيب امون بخوتن اتون اي قرص الشمس ومثَّل نفسهُ بالنقوش قائماً بازاء الشمس المشعَّة يقدِّم لها قربانهُ ويترنَّم بتسابيحها مطرئاً نورها

وحرارتها وإحياءها للطبيعة واهمل عبادة الاله امون لا بل تبرّأ منهُ وناجزهُ حرباً عواناً فامر بتدمير هياكلهِ والغاء عبادته وبذلك اعتق نفسهُ من سيطرة كهنتهِ . وعزَّز في مدينتهِ الجديدة عبادة الاله اتون ودعا باسمهِ مدينتهُ خوت نياتون اي افق قرص الشمس وافرغ جهدهُ في تصويرها وتزيينها بالابنية الجميلة من معابد دينيَّة شاهقة ومباني مدنيَّة باذخة

ولا يزال منها بقايا جميلة الى يومنا ومكانها يُعرف بتلّ العمارنة حيث وجدت منذ ٤٠ سنة تلك الآثار الكتابيَّة الجليلة التي وصفها حضرة الاب لامنس في المشرق في سنتهِ الثالثة (راجع كتابهُ تسريح الابصار ١ : ٧٢ــ٨١) لكنَّ كهنة امون ناصبوا الملك بكل قواهم لئلا يفقدوا منزلتهم السامية

أمَّا امينوفيس الرابع (اخن اتون) فثبت على كسر شوكتهم الى آخر حياتهِ واراد ان يسير خلَفَهُ على آثارهِ لكنهُ لم يولد لهُ ولد ذكر وانَّما كان لهُ ثلث بنات زوَّج الاولى المسمَّاة مريت اتون اي محبوبة اتون باحد اعيان مملكتهِ المدعو سمنخ كارع ورشَّحهُ للملك بعدهُ وماتت الثانية صغيرة وقرن بالزواج ابنتهُ الثالثة انخ سن اتون بتوت عنخ امون . وتوفي سمنخ كارع بعد قليل وصار توت عنخ امون وليّ العهد وكان اسمهُ وقتئذٍ توت عنخ اتون اي صورة الشمس الحيَّة . فقبض على زمام الملك وهو غلام يافع لا يتجاوز سنُّهُ اثنتي عشرة سنة فحكم في مدينة خوتنياتون ثلث سنين لكنهُ شعر بمقاومة كهنة امون لحكمهِ وتهييجهم اهواء الشعب عليهِ فرأى انهُ لا ينجو من شرّهم إلَّا بان يعود الى مدينة طيبة ويتعبَّد للاله امون ويضرب الصفح عن اتون . فكان لفعلهِ هذا صدى استحسان في الشعب وغيَّر اسمهُ توت عنخ اتون بتوت عنخ امون اي صورة امون الحيَّة وسعى باعادة السلام في القطر المصري وبتشييد الهياكل والقصور الفخمة كاسلافهِ . لكنهُ ما لبث ان ودَّع الحياة مبتدئاً بداء السلّ وهو في الثامنة عشرة من عمره

٢ مدفن الملك توت عنخ امون

مات الملك توت عنخ امون في طيبة ودُفن بعد تحنيطهِ في المدافن الملوكيَّة في وادي الملوك ودُفنت معهُ جواهرهُ . وكانت عادة الفراعنة اذا جلسوا على عرش السلطان

ان يفكروا قبل كل شيء بحياتهم في الآخرة بعد الموت لاعتقادهم خلود النفس فكانوا يشيدون الاهرام لهذه الغاية ويختارون لهم مدفناً يزينونهُ باصناف الكتابات الهيروغليفيَّة من كتاب الموتى وبالنقوش الفنيَّة المشيرة الى احوال النفس في حسابها وثوابها وعقابها . ولئلَّا ينهك اللصوص حرمة المدفن كانوا يحتاطون لهُ بانواع الوسائط والحيل ليبقى مجهولًا الى آخر الدهر وكانوا منذ ذاك الحين يشغلون صنَّعة مصر ليصطنعوا لهم أبدع الآنية واجمل الحلي واثمن الرياش وكل شارات الملك الزدانة بأفخر الحجارة الكريمة والمعادن الثمينة التي لا تُرى في غير قصور الملوك حتى اذا مات الفرعون جُعلت تلك الطُّرف معهُ في مدفنهِ

الَّا ان تلك المدافن على الرغم من المساعي في إخفائها في بطن الارض لم تنجُ غالباً من مطامع اللصوص الذين لم يدخروا وسعاً في اكتشافها حتى وقفوا على اسرارها ونهبوها ولم يدعوا في الغالب غير النواويس التي لم يمكنهم نقلها وفيها اجساد الملوك المحنَّطة التي تُرى اليوم في متحف قصر النيل مع قسم من الجواهر التي نجت من سرقة مُنتهكيها

وفي القرن السابق والعشر الاول من القرن الحاضر تمكن الاثريون من اكتشاف معظم مدافن اولئك الملوك بعد التفتيش الطويل لما كان يحول دونها من الاحتياطات لكتم اسرارها

وكان ارباب البحث قد قطعوا الامل من وجود مدفن جديد لولا حرص احد علماء الانكليز اللورد كرنارفون على مواصلة التفتيش في وادي الملوك وبصحبتهِ احد الباحثين من ذوي الذكاء والثبات في العمل المستر كارتر . فكان جزاء تلك الهمَّة القعساء اكتشاف مدفن توت عنخ امون

ومن حسن الحظ قد نجا هذا الميت من جشع اللصوص الذين لم يقفوا إلَّا على حجرتهِ الخارجة فنهبوا كنوزها دون ان ينتهكوا باطنهُ وغرفهُ الداخليَّة حيث وُجدت معظم كنوز هذا الملك وجواهرهُ بتمامها مع جثتهِ في تابوتهِ المحكم الصنع

ولعلَّ هذه الكنوز اوفر من كنوز بقيَّة الملوك المفقودة لان هذا الملك لم يخلفهُ احد من ذريَّتهِ فوضعت كل طرف بلاطهِ معهُ دون ان يختصَّ الخلف منها بشيء

لنفسه . ومن المحتمل ايضاً ان كهنة امون ارادوا المبالغة في اكرامه لرجوعه الى طيبة عاصمة معبودهم امون

ومما تمتاز به هذه الكنوز انها جامعة بين صناعتين مختلفتين صناعة طيبة وصناعة تلّ العمارنة فانّ مصنوعات طيبة اجمل وابهى من مصنوعات تلّ العمارنة لكنها دونها دقّة في تمثيل الطبيعة ومحاكاة حقيقة المرئيّات في الكون فجاءت كلتاهما شاهداً على براعة قدماء المصريين في الفنون الجميلة

كان اوّل يوم اكتشافها في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٢ فاقتضى لفتح المدفن وغرفه الداخليّة ومعاينة ما يحتويه من الآثار العجيبة ونقلها بكل حرص وعناية الى متحف قصر النيل نحو ثلث سنين بمراقبة العلماء والاثريين الفرنج والمصريين وهي تُعدّ بالمئات . وفي تلك الاثناء استأثر الله باللورد كرنارفون فمات كما يقال مسموماً بلسعة ذبابة سامّة

٣ كنوز توت عنخ امون

قد عُرضت هذه الكنوز في الطابق الاعلى من المتحف المصري في جهته الشمالية الشرقيّة وهي تشغل قسماً كبيراً من المتحف بعضها في حُجَر خاصّة وبعض في خزانات زجاجيّة وغيرها في سواء المتحف لم ينقصها سوى الناووس الكبير الذي كانت فيه التوابيت المودعة فيها جثّة الملك . وبقيت تلك الجثّة مع الناووس المذكور في مدفنها لصعوبة نقلها سليمةً الى المتحف وقد أُصيبت بالبلى لتقدم عهدها وتأثير الحنوط في اعضائها ولفائفها

ومن المستحيل ان نصف هنا بل ان نعدّد كل افراد الكنوز المستخرجة من مدفن توت عنخ امون وانما نذكر فقط اخصّ ما يوقف قرّاءنا على تلك الجواهر ونقسم ذلك ابواباً تسهيلاً للوقوف على ضروبها واصنافها

﴿ جثّة الملك ولفائفه وتوابيته ﴾ كانت جثّة الملك توت عنخ امون محنّطة كما اعتاد ذلك المصريون في تجهيز جُثث الملوك قبل ان يضجعوها في التابوت وقد لُفّت بضروب الانسجة الثمينة المطرّزة المزركشة الرصّعة بالحجارة الكريمة . وكانت هذه اللفائف قد لصقت بالجثّة فلم تُنتزع عنها إلّا بعد الجهد الجهيد وقد بلغ عدد تلك

الصدريات الجميلة تسعاً . وكانت كل اعضاء الجسم مزدانة بالحلي والزخارف . فكان على رأسهِ تاجٌ ملكي يتألف من عصابة ذهبيَّة عليها نقوش بديعة من الذهب ومطعَّمة بالعقيق في اعلاه شعار الملك وهما النسر والثعبان المقدَّس (uræus) المشار بهما الى حكمهِ على قطري مصر الاعلى والبحري . وعلى وجههِ قناع ذهبي عليهِ صورة الملك في غاية الاتقان وكان حول عنقهِ قائم ثمينة تمثل آلهة مصر المراقبين للموتى . وعلى صدرهِ قلائد عديدة لا يُقدَّر ثمنها محبوكة على اجمل طراز وابهى شكل . وكان يزين ذراعيهِ عدد عديد من الأساورة الثمينة ولاصابع يديهِ غلافات ثمينة مع خواتم بديعة . وفي وسطهِ نطاقان من الذهب الخالص أسند الى كل منهما خنجر ذو شغل عجيب . وفي رجليهِ حذاءان ذهبيَّان ولكل من اصابع رجليهِ غمدٌ من الذهب كاصابع يديهِ

وكانت الجثة في ثلثة توابيت داخلة في صندوق كبير من خشب الارز المزدان بصور الالهة المختلفة بعضها على شكل بني البشر وبعضها على شبه الحيوانات الرمزية . والتوابيت على شكل صورة الانسان (anthropoïde) ثالثها المحتوي للجثة يتألف من صفائح الذهب الخالص باطنهُ محفور حفرًا فنياً عجيباً وجوانبهُ ممثلة للملك في هيأة الاله اوزيريس في يدهِ الصولجان والسَّوط على جانبيهِ آلهة مصر وعلى جبينهِ شعار الفراعنة . وهناك نقوش مدهشة متزلة بالمينا وذات الالوان البهيَّة مما لا يكاد يبلغ صُنع مثلهِ احذق الجوهريين في عهدنا . وكان هذا التابوت ضمن تابوت آخر من الخشب الغالي الثمن المغشَّى بالذهب وهو مرصَّع باصناف قطع من الزجاج المختلف الالوان المنعَّم والمجون عجناً فنيًا

﴿صور توت عنخ امون﴾ بين كنوز هذا الملك عدد لا يُحصى من صوره فمنها ما يمثلهُ صغيرًا ومنها ما هو على كمالهِ الطبيعي . يُرى منتصباً . وغيرها يمثلهُ نصفيًا وفي بعضها يُرى مع الملكة زوجهِ . ومنها ما جُعلت صورتهُ على شبه احد آلهة مصر . ويُرى في بعضها بازاء معبودهِ الاله الشمسي اتون الذي تشعُّ من قرصهِ اشعَّة تُنير الملك . وفي غيرها قد شُخِّص منتصرًا على اعداء الدولة او قابلًا الجزية من الشعوب الخاضعة للملكهِ مع تصاوير هيئاتهم وهدايا رؤسائهم على ابدع ما يكون . ومن صوره ما يمثلهُ في سيرهِ ماشياً او راكباً عجلتهُ الملكيَّة او في هيئة الصيد وكل ذلك دليل باهر على ما اتصلت

اليهِ مدنيَّة المصريين في ذلك العهد وعنايتهم بكل الفنون الجميلة

﴿شعائر الملك﴾ قد عُرضت هذه الشعائر المستخرجة من مدفن توت عنخ امون في الطابق الاعلى من متحف قصر النيل متفرّقة بعضها في الخزانات وبعضها في الحجر المختلفة او الاروقة . منها تيجان متعدّدة كان الملك يلبسها على اختلاف المجالس وهي على طُرُز بهيَّة غاية في الجمال

ومن شعائرهِ عرشُهُ الملكي الذي يعتبر كتحفةٍ فريدة في جنسها وهو مصنوع صنعاً بديعاً يعجز اللسان عن وصفهِ ظهرهُ مرصَّع باحجار كريمة مختلفة الالوان وعلى مسنَدَيهِ صورة حيَّتين مجنَّحتين . وهناك صورة الملكة بازاء الملك وفي يدها كوبٌ تقدّمهُ لزوجها وفوقهما قرص الشمس المشعَّة

ومن شعائرهِ الملوكيَّة الصولجان وقد عثروا لهُ على صوالج مختلفة على اشكال متباينة تنتهي رؤوسها بمقابض ملتوية كالمكاكيز ومثّلة لاشخاص او حيوانات بعضها من الذهب الخالص او هي محلّاة بالذهب منمّقة بضروب الحلي

ومنها السَّوط المشير لعقاب اعدائهِ منهُ امثلة شتى ومعظمها يتألف من عود متين منشّى بالذهب مقبضهُ من البرونز المذهب يعلوه سبائك ذهبيَّة وزجاجيَّة

ومن شعائرهِ ايضاً وشاحٌ ملكي يتركَّب من ٣٨ قطعة ليّنة من الذهب مشتبك بعضها ببعض وهي مفرغة قد افرغ في وسط كلٍّ منها زجاجٌ ملوَّن وهي تحيط بباز وتمثّل اجنحتهُ في طيرانهِ وذلك من اغرب المناظر الفنّانة . وبينها اوشحة اخرى تأنّقوا في تركيبها وصورها ما شاؤوا

وكذلك شعار الملك السابق ذكرهُ المثّل للحيَّة والنَّسر وُجد منهُ عدَّة قطع فيكون اماَّ وحدهُ واماَّ مركَّباً مسبوكاً بقطع ذات اشكال بهيَّة

﴿الاثاث الملكي﴾ وجد في مدفن توت عنخ امون مجموعُ ما يتباهى بهِ الملوك من اصناف الاثاث . فمن ذلك الأسرَّة الملكيَّة وهي من الابنوس وضروب النقوش والتصاوير . فترى الأُسود تسندها والآلهة تحرسها . وهناك سرير للملك عرضت عليهِ

توت عنخ امون وقرينتهُ

في زمن اكاميها للاله اتون (قرص الشمس)

جثتهُ وهو يمتهي الجمال بنقوشهِ وتماثيلهِ وضروب اشخاصهِ ورموزهِ

ومن الاثاث الملوكيَّة اجناس الكراسي الفخمة والمقاعد والمتكآت المختلفة الحجم والهيئة والزينة وكلُّها اهلة بدور الملوك

وكذلك العُلَب اللطيفة الجميلة المزدانة بالصور والزهور البديعة لجميع حاجات الملوك وزينتها . ومثلها الآنية البيتيَّة بعضها من الرخام المزدان بالذهب والعاج وبعضها من الذهب المحلَّى باليمنا عليها صور الحيوانات والزهور من ابدع ما يكون

ومثلها ايضاً المصابيح والسُّرج من المرمر الابيض الشفَّاف راكزة على آنية ثمينة ذات الصناعة الفريدة

وكان بين المكتشفات مزهريَّة بزهورها ومراوح وعدد وافر من العصيّ باشكالها اللطيفة وحسن تزويقها تأخذ بمجامع الابصار . ووُجدت ايضاً ادوات موسيقيَّة وغيرها

﴿ الآثار الدينيَّة والعلميَّة ﴾ ولم يخلُ مدفن توت عنخ امون من الآثار الدينيَّة والعلميَّة . قد استُخرج منهُ امثلةٌ لمعظم آلهة المصريين كايزيس واوزيريس وحورس وانوبيس فمنها على صورة الآدميين ومنها على صورة حيوانات وطيور مختلفة كالاله ابيس (الثور) والاله فتاح والاله اتون . بل وجدت صور الهة كانت مجهولة قبل هذا العهد كالاله مامو والاله سَنْد . ووجدت ايضاً الجُعلان او الخنافس الرمزيَّة مصنوعة من معادن شتى

اما الآثار العلميَّة فقد وجدوا في مدفن توت عنخ آمون لفائف كثيرة من البردي المكتوبة بالخط الهيروغليفيّ ويُرجى من مطالعتها افادات تاريخيَّة وعلميَّة . هذا فضلاً عمَّا استفادوا من تلك الآثار لمعرفة أحوال المصريين في دينهم ودنياهم ولاسيما للوقوف على فنونهم الجميلة

فمن هذا النظر الاجمالي يمكن القرَّاء ان يتبيَّنوا قيمة هذه الكنوز ويدركوا سبب اعجاب العالم باكتشافها